21. Weber, M.(1992): Essai sur la théorie de la science . Trad Fse Agora.
22. Wright, C.M. (1971): l imagination sociologique ; Trad ; Fse ; Maspero.

خصائص القصة لدى كتاب الحركة الإصلاحية في الجزائر
محمد السعيد الزاهري نموذجا

أ. د. أحمد منور
جامعة الجزائر 2

ملخص

اتخذت القصة القصيرة في الجزائر منذ ظهورها في عشرينيات القرن الماضي، منحى دعويا إصلاحيا بارزا، حيث اتخذت أداة لنشر الوعي، ومحاربة الجهل والأمية، والتصدي للشعوذة والخرافة، والوقوف في وجه التبشير المسيحي، ودعاة التغريب والحداثة المشبوهة، في تساوق مع الحركة الدينية، الإصلاحية، التي قادها الشيخ عبد الحميد بن باديس، ومهدت لبعث وعي وطني سليم وراسخ الركائز.

اضطلع بهذه المهمة رجال كانوا قد تخرجوا من جامع الزيتونة في تونس، أو القرويين في فاس، وحظي قلة منهم بالتخرج من الأزهر. كان معظمهم يجمع بين مهمة التعليم في المدارس، والخطابة على المنابر، والكتابة في الصحافة ؛ وكان محمد السعيد الزاهري (1899ـ1956) الشاعر الفحل، والصحافي القدير، أحد أبرز هذه الوجوه في الحركة الإصلاحية. عاش حياته كلها في سبيل الإسلام والقضية الوطنية، وكان من القلائل الذين راسلوا الصحافة المشرقية، وكتب عن قضايا البلاد المغاربية من طنجة إلى بنغازي، فكان همزة وصل بين المغرب والمشرق العربي.

وكان الزاهري أول من كتب القصة في الجزائر، وأول من نشر مجموعة قصصية، وذلك سنة 1928، فكان بحق رائد القصة الجزائرية بلا منازع، وهو الذي أكسبها توجهها الإسلامي بالتحديد، وطبعها بطابعه المميز، من خلال موضوعاته الحية التي عالجها، واللغة الفصيحة، المعبرة التي وظفها، والأسلوب القرآني الذي احتذاه، فأثر بذلك في كل الكتَّاب الذين جاؤوا من بعده، طيلة ثلاثة عقود زمنية.

الكلمات الدالة: الإصلاح، نشر الوعي، الزاهري الرائد.

مقدمة

قبل أن يعرف محمد السعيد الزاهري (1899 ـ 1956م) كرائد في كتابة القصة في الجزائر ذاع صيته كشاعر وكاتب مقال، وذلك حينما كان طالبا في جامع الزيتونة في مطلع عشرينيات القرن الماضي، حيث كان ينشر، دون انقطاع، قصائده ومقالاته في جرائد "الوزير" و"النهضة"، و"الزمان" التونسية، كما عرف بنشاطه في

الوسط الطلابي، ومواظبته على حضور أنشطة النوادي الأدبية التونسية[1]. وعندما أنهى دراسته بالزيتونة وعاد إلى الجزائر في سنة 1924 ظل وثيق الصلة بزملائه في الدراسة، وبأصدقائه في منتديات الأدب بتونس، كما استمر في نشر القصائد والمقالات في الجرائد التونسية المذكورة حتى سنة 1934. ولم يرد ضمن ما نشره في تونس أية محاولة في مجال القصة[2].

والمرجح أنه لم يشرع في نشر القصة قبل سنة 1926، وبالتحديد في مجلة «الفتح» المصرية، لصاحبها محب الدين الخطيب، التي تأسست في السنة المذكورة. ويبدو أنه حينما نشر أولى محاولاته في القصة، إنما نشرها على سبيل التجريب، ثم ما لبث أن واصل الكتابة فيها بعد أن لقيت صدى طيبا لدى صاحب المجلة ولدى القراء، وقد أورد في تقديمه للطبعة الثانية من مجموعته القصصية مقتطفات مما كانت تلقاه قصصه من الرضى والاستحسان لدى القراء، بل ولدى بعض المثقفين والمفكرين المعروفين، ومنهم الأمير شكيب أرسلان الذي راسله وحثه على المضي في كتابة ونشر تلك القصص[3]، وصاحب المجلة نفسه، الذي أبى إلا أن يعيد نشر قصصه سنة 1928 في كتيِّب مستقل، وقدم لها بالعبارات التالية: "هذه فصول كتبها أخي في الدعوة، الأستاذ السيد محمد السعيد الزاهري الجزائري، لتنشر في صحيفة الفتح، فرأيتها مثلا صالحا للدعوة إلى الخير، وما يجب أن يكون عليه الداعي من بصيرة وحكمة. لذلك استخرت الله عز وجل في إفرادها بهذا الكتاب، عسى أن ينفع الله بها، وهو ولي التوفيق"[4].

القاص الداعية

ولا يفوتنا أن نشير هنا أن العنوان الذي حملته المجموعة، وهو: "الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير"، لم يكن من وضع المؤلف، وإنما هو من اختيار محب الدين الخطيب. ويلاحظ أن لا شيء في العنوان يشير إلى القصص أو يدل عليها، مما يعني أن واضعه لم يراع في وضعه إلا الغاية التي تستهدفها القصص، ألا وهي العمل الدعوي الإسلامي. وعندما أعاد المؤلف طبع المجموعة سنة 1933، أضاف إليها

1 – يذكر أنه كان ملازما لنادي الأستاذ معاوية التميمي، الذي كان يجتمع فيه الأدباء يتحادثون ويتسامرون، وكان الزاهري معجبا بأستاذه الزيتوني، ويقول إنه "لم ير أوسع خبرة منه بكلام العرب، ولا أبصر منه بمواقع النقد". ينظر: محمد الهادي السنوسي الزاهري (2007)شعراء الجزائر في العصر الحاضر". ط2، منشورات السائحي، الجزائر، ج1ص118.

2– راجع محمد الصالح الجابري 1983 "النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس1900ـ1962" نشر الدار العربية للكتاب، ليبيا ـ تونس، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ص391.

3– ينظر: محمد السعيد الزاهري (د.ت) " الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير". نشر دار الكتب، ط2، الجزائر ص 7و8.

4 – من مقدمة الطبعة الأولى بقلم محي الدين الخطيب، نقلا من مقدمة المؤلف للطبعة الثانية.

"فصولا" جديدة[5]، ولكنه أبقى العنوان على حاله، مما يجعلنا نستنتج استحسان الزاهري لاختيار الناشر، من جهة، وتطابق وجهة نظره، من جهة أخرى، معه في النظر إلى القالب القصصي باعتباره وسيلة لا غير. وبسبب هذه النظرة اتسمت قصصه بالطابع الدعوي المباشر، الذي يغلب عليه الوعظ والإرشاد، وبالحرص على إيصال أفكاره إلى القارئ بشكل صريح لا يقبل التأويل، وهو ما لا تحتمله القصة الحديثة، ولا تتسع له من الناحية الفنية.

غير أنه ينبغي أن لا يغيب عن ذهننا، من جهة أخرى، أن كاتب هذه القصص إنما هو شيخ زيتوني، عربي اللغة والثقافة، ديني العقيدة والتوجه، ومن ثمة فإن كتابته للقصة جاءت بدافع دعوي، في المقام الأول، ثم بدافع من النجاح الذي لقيته قصصه لدى قراء مجلة "الفتح" ـ كما مر معنا ـ ولم تكن، بتأثير من الأدب الفرنسي، الذي يفترض أنه تأثر به بحكم الواقع الاستعماري الذي كانت تعيشه الجزائر، أو بتأثير من الثقافة الغربية عامة، والفرنسية خاصة، كما كان الحال مثلا عند الأخوين محمد ومحمود تيمور، المعاصرين له، ومن ثمة فإننا نستطيع أن نجزم، بكل ثقة، أن ما كتبه الزاهري إنما كان مستلهما في شكله بالأساس من القصص العربي القديم، ومن الأساليب التي كانت شائعة فيه، ويشهد على هذا ما حفلت به قصصه من استطرادات كثيرة، ومن استشهاد بالقرآن وبالشعر، ومن تكرار لازمة القول في الحوار، المتمثلة في "قال" و"قلت"، و"قال الراوي"، وما إلى ذلك مما هو متداول في أساليب الرواية بمختلف أشكالها في التراث العربي.

يضاف إلى ما سبق أن كاتبنا كان يسلك، في الفترة التي نشر فيها قصصه، طريقا لم تكن معالمه قد اتضحت بعد في البلاد العربية، ويغامر في مجاهل لم يخض فيها على أيامه إلا القليل من الكتاب. وفي مصر نفسها كان الأخوان محمد ومحمود تيمور يبذلان الكثير من الوقت والجهد والمال من أجل إرساء قواعد هذا الفن في الأدب المصري، ويجهدان نفسيهما في إضفاء الطابع المحلي على ما كانا يكتبان فيه، ويجدان الكثير من العنت في سبيل إخفاء ملامحه الفرنسية. ولم يكن هذا الفن في بلاد المغرب عامة قد خطا خطوات يعتد بها، بما في ذلك تونس التي كانت سباقة في تبني العديد من القوالب والأشكال الأدبية والفنية الحديثة، حيث ظلت القصة فيها حتى أواخر العشرينيات من القرن الماضي، قليلة من حيث الكم، ضعيفة من حيث الفن[6]. بمعنى أن الزاهري كان يخوض تجربته في غياب نموذج

5 – يتعلق الأمر، على ما يبدو، بالفصول الأخيرة في المجموعة التي تحمل العناوين: "حنين الإسبان إلى العرب"، و"كيف يغوون شبابنا"، و"فصل ختامي"، وهذا على سبيل الاستنتاج، لأن الأعداد التي صدرت من المجلة ستة لا غير، ولأن المؤلف لم يذكر، من جهته، الفصول التي أضافها.

6 – مصطفى فاسي " البطل في القصة التونسية" نشر المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985 ، ص89.

عربي حديث في القصة يحتذي به، أو تقليد فني معاصر يسير على هديه.

وجدير بالذكر هنا أن الزاهري لم يستعمل مطلقا لفظ "القصة" في تقديمه للطبعة الثانية من قصصه، واكتفى بوصفها بـ"الفصول"، مستعملا العبارة نفسها التي استعملها محب الدين الخطيب في تقديمه لها، وهي، كما نلاحظ، عبارة فضفاضة، واسعة الدلالة، كانت تطلق منذ القديم على أجزاء الكتاب، وتستعمل في مختلف التصانيف العلمية، كما أطلقت في العصر الحديث على أجزاء الرواية، ولم يكن الزاهري ـ بطبيعة الحال ـ يقصد هذا المعنى الأخير، لأن «فصوله» لا تشكل حلقات قصة متصلة الأحداث.

وخلاصة القول أن الزاهري، حينما اختار القالب السردي القصصي ليصب فيه أفكاره، لم يكن متأثرا في ذلك بفن القصة القادم حديثا من أوروبا إلى البلاد العربية، ولكنه كان متأثرا بتقاليد السرد في الثقافة العربية، لكن هذا لا ينفي تأثير أوروبا في ظهور فن القصة العربية الحديثة، بعد انتشار هذا الفن في أوروبا في القرن التاسع عشر، وبعثه في ثوب جديد يتلاءم مع روح العصر، وهو الفن الذي تأثر به العرب، وانتشر مع انتشار الصحافة في البلاد العربية، ولم يكن الزاهري بمعزل عن عصره، ولا عن تأثير الثقافة الأوروبية في الثقافة العربية الحديثة، ولكن الأكيد أنه كان من الاعتزاز بهويته، وبثقافته العربية الإسلامية، ما يجعله يتعامل مع ذلك التأثير بحذر شديد، وبلا انبهار بثقافة الغرب، مثلما كان طه حسين وسلامة موسى ـ اللذان ذكرهما بالاسم ـ حينما تحدث عمن كانوا يروجون من العرب للفكر الغربي ولثقافته[7]. يضاف إلى هذا أن طبيعة الموضوعات التي كان الزاهري يعالجها، وأعني بها مواجهة التبشير المسيحي بالتبشير بالإسلام، وطبيعة المعركة التي كان يخوضها، وكل المثقفين الوطنيين على زمانه، في مواجهة الحرب الاستعمارية المنهجة والمدعمة بقوة السلطان والعلم والمال، للقضاء على الهوية الوطنية الجزائرية، بمكوناتها الأساسية ـ الإسلامية والعربية والأمازيغية ـ كانت تتنافى والتأثير الثقافي الإيجابي الذي يحدث بين الثقافات واللغات في الظروف العادية، ويكون مبعثه، في الغالب، الإعجاب بالآخر، أو على الأقل الشعور بالنَّدية إزاءه.

والأكيد أيضا أن الزاهري لم يكن يقصد ـ حينما كتب قصصه ـ أن يؤسس للقصة الحديثة في الجزائر، ولا أن يجاري كتابها في البلاد الغربية أو العربية، ولكن كان ينظر إلى المسألة على أنها وسيلة من وسائل مكافحة الاستعمار، وطريقة في

7 – محمد السعيد الزاهري" الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير" ص30.

التصدي لحملات التبشير المسيحي، في الجزائر خاصة، والبلاد المغاربية عامة[8]. والمصادفة وحدها، هي التي جعلته رائدا لهذا الفن الأدبي الجديد. ونذهب إلى القول بهذا الرأي لأسباب عديدة، منها أننا لم نعثر على أي نص قصصي باللغة العربية منشور قبل قصص الزاهري في الصحافة الجزائرية، أو العربية، ومنها أن قصصه صارت، بعد نشرها على صفحات "الفتح"، ثم في الصحافة الجزائرية فيما بعد، نموذجا يحتذي به معاصروه ومن جاؤوا بعده من الكتاب، وينسجون على منواله في الشكل والمضمون[9]. ومنها أنه لم ينقطع عن الكتابة في هذا الفن، وواصل نشر قصصه في صحف متفرقة، جزائرية ومشرقية، وحقق في بعضها تطورا نوعيا ملحوظا على المستوى الفني[10]. وهنا يمكننا أن نتساءل عن المواصفات الفنية التي تنطوي عليها القصص التي كتبها هذا الرجل؟ هل تتوفر من الناحية الفنية على ما يجعل منها قصصا بالمعنى الحديث، ويجعل، بالنتيجة، من كاتبها رائدا لفن القصة في الجزائر؟ أم أن ما كتبه لا يعدو أن يكون تكرارا للنمط العربي القديم في سرد الحوادث والأخبار، الواقعية أو المختلقة؟ أم تراه قد جمع بين هذا وذاك، مع ما في محاولة الجمع بين القديم والحديث من التنافر، ومع ما في البدايات من التعثر؟

بين القصة والمقال

كان أول من تعرض بالنقد والتقويم لما كتبه الزاهري في مجموعة "الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير" ومن حذا حذوه في كتابة القصة من معاصريه، هو أستاذنا الدكتور عبد الله ركيبي، الذي أطلق على تلك النماذج مصطلح "المقال القصصي"، لأن أول السمات البارزة فيها هي الجمع بين مواصفات المقال والسرد القصصي، والسبب في ذلك ـ كما يوضح الدكتور ركيبي ـ يعود إلى أن "كاتب المقال القصصي كان يكتب وفي ذهنه المقال لا القصة، ومن هنا يصعب تعريف هذا المزيج من الرواية والمقالة والمقامة بتحديد سوى أنه "مقال

8– تطرق في فصله المعنون بـ "كيف يغوون شبابنا" إلى حركة التبشير المسيحي في الجزائر وفي المغرب أيضا، وكيف أصبحت تتسلل إلى عقول وقلوب المسلمين عن طريق الإسلام نفسه، وذكر حالة شاب فاسي تنصر، بالرغم من أنه ينتمي إلى أسرة عريقة عرفت بالتصوف والصلاح، بعد ما أوهموه "أن التصوف هو روح الإسلام، وأن هذه هي المسيحية"، وذكر حالة مجموعة من الفتيات المسلمات يدرسن في إحدى المدارس الكاثوليكية بمكناس، رآهن صديق له يمشين في إحدى الحدائق العمومية سافرات، ويرقصن ويغنين أغاني مسيحية. راجع محمد السعيد الزاهري» الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير»ص114، 115.

9 – نذكر منهم بالخصوص : محمد بن العابد الجلالي من المتقدمين، وأحمد رضا حوحو من المتأخرين، وكلاهما أسهم بقسط وافر في كتابة القصة وتطورها في الجزائر في الفترة ما بين 1935 و1956.

10 – مثل ذلك قصته "إني أرى في المنام" التي نشرها في مجلة الرسالة المصرية في عدد أبريل 1936، التي تعد على المستوى الفني قصة نموذجية، وقد أعاد نشرها الدكتور صالح خرفي ضمن كتابه "محمد السعيد الزاهري"، في سلسلة الأدب الجزائري الحديث، نشر المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986.

قصصي"[11]. لكن المقال القصصي يختلف عن المقامة في أنه "لم يكن يهدف إلى الترفيه أو التسلية، أو تعليم اللغة والتلاعب بالألفاظ، والجري وراء البديع، وإن كان أحيانا يأتي عفويا، لا يقصد إليه الكاتب قصدا كما هو الحال في المقامة"[12]. ومعنى هذا أننا أمام نوع جديد من الكتابة أنتجته الصحافة الحديثة، يجمع بين التعبير المباشر عن فكرة ما، مثل ما يفعل كتاب المقالات في الصحافة، وبين التمثيل لها غير المباشر، عن طريق ما يشبه ضرب المثل بقصة تطول أو تقصر، يسردها الكاتب، وتختلط فيها أشكال السرد القديم بالحديث، وفي مقدمتها المقامة والرواية.

وهكذا، واستنادا إلى هذا التعريف، يكون "المقال القصصي" جنسا مهجنا، يجمع بين مواصفات القصة والمقال، وينطبق هذا المفهوم على مجموعة الزاهري "الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير" بصفة خاصة، وعلى من عاصروه وحذوا حذوه بصفة عامة. غير أننا إذا ما فحصنا النماذج التي بين أيدينا مما كتبه الزاهري من "مقالات قصصية"، فإنه يتبين لنا على الصعيد العملي، أن نسبة السرد القصصي فيها إلى الخطاب المقالي المباشر تتفاوت من نموذج إلى آخر إلى درجة الاختلال الكبير فيما بينها، ففي قصص مثل "عائشة" و"الكتاب الممزق" و"صديقي عمار"، و"في أحد منتزهات وهران"، لا يشكل الخطاب المقالي المباشر إلا تمهيدا صغيرا لموضوع القصة، ليعود الكاتب إليه في آخر القصة، ليستخلص منها العبرة، ويحث المسلمين، في كل مرة، على ضرورة التعريف بدينهم، والدفاع عنه، والدعوة إليه (لأن كل النماذج البشرية التي روى الكاتب قصتها كانت من غير المسلمين ، ممن يعتنقون الإسلام بعد أن يجدوا من يشرح لهم مبادئه السمحة، أو من المسلمين بالوراثة، الذين ضللهم المبشرون المسيحيون، أو افتراءات المستشرقين الحاقدين على الإسلام). أما في مقالات قصصية أخرى فنجد العكس، حيث يطغى الخطاب المقالي المباشر فيها على الجانب القصصي إلى درجة تضيع فيها معالم القص، وتصبح مجرد شاهد أو مثال على ما جاء في المقال لا غير، مثل "حنين الإسبان إلى العرب"، و"طلبة شمال إفريقيا"، و"كيف يغوون شبابنا". ونلاحظ هنا أن هذه العناوين نفسها تشير إلى طغيان عنصر الخطاب المقالي المباشر فيها، في الوقت الذي نجد فيه العناوين التي أتينا على ذكرها في الأول تشير إلى عنصر القص وتحيل عليه بشكل لا لبس فيه.

ومن هنا، وحسما للجدل حول جنس هذه الكتابات، يمكننا أن نعيد تصنيف

11 – عبد الله ركيبي"القصة القصيرة في الأدب الجزائري المعاصر". نشر دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة 1969، ص57.

12 – المرجع نفسه، ص56.

ما جاء في مجموعة "الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير" حسب الصفة الغالبة عليها، إلى "قصص" تنتمي إلى عالم السرد، و"مقالات" تنتمي إلى عالم الفكر، حيث نلاحظ أن الأولى منها تتضمن كل مواصفات القصة من سرد ووصف وحدث وشخصيات وحوار، وهذا يضعها مباشرة في خانة "جنس القصة"، في حين أن الثانية تتضمن المواصفات الحجاجية التي يتصف بها المقال الذي يعتمد على الخطاب المباشر، ويعرض قضية ما ذات طابع فكري، اجتماعي، أو ديني، أو سياسي، ويستعرض مختلف جوانب تلك القضية، ويناقش الآراء التي قيلت فيها، ويسوق الأدلة والحجج التي تؤيد أو تفند أو تعدل تلك الأفكار التي تقف معها أو ضدها، وهذا يضعها منطقيا ضمن "فن المقال". وبناء على هذا التمييز، سوف ينصب اهتمامنا في هذه المجموعة على "جنس القصة" بشكل خاص.

الخصائص الأخرى لقصص الزاهري

وعلى ضوء ما سبق يمكننا أن نحدد الخصائص الأخرى (غير خاصية الجمع بين القصة والمقال) التي نلاحظها في قصص الزاهري على النحو التالي:

1. حضور المؤلف كشخصية محورية

في جميع القصص، فهو الذي يروي الأحداث ويعلق عليها، وهو الذي يحاور الشخصيات ويناقشها، وهو الذي يقنعها بما يقدمه من مختلف الحجج العقلية والنقلية التي يسوقها، لتقتنع جميعها في الأخير بآرائه، لأنها كانت لا تعرف الإسلام على حقيقته، مثل "عائشة" (وهي في الأصل فرنسية مسيحية) "... وكتبت إلي هي بخط يدها حاشية ضافية (على رسالة زوجها) تقول فيها: إنها مدينة لي بهدايتها إلى الإسلام ... منذ سمعتني أتحدث إلى زوجها عن حكمة الصلاة والصيام وتحريم الخمر، وعن القرآن الكريم، وكونه كتاب الإنسانية الذي لا يصلحها إلا هو، وكونه تنزيلا من الله ما فيه شك"[13]، وكذا بطلة «الكتاب الممزق» (وهي باحثة اجتماعية كانت قد وضعت كتابا تدعو فيه المرأة المسلمة إلى التحرر، وإلى التمرد على الحجاب) ولكن اختلاطها بالنساء المسلمات، وتعرفها على المكانة التي أعطاها الإسلام للمرأة، والحكمة من الحجاب، جعلتها تمزق كتابها، وتعتنق الإسلام، وتشرع في تأليف كتاب آخر يناقض ما جاء في الأول من الأفكار[14]. وينطبق هذا أيضا على بطل "في أحد منتزهات وهران"، ويتعلق الأمر بصحفي إسباني جاء إلى وهران ليقوم بتحقيق صحفي، فالتقى به المؤلف في أحد المنتزهات، ودار بينهما حديث طويل، بدآه بالشعر، ثم انتقلا إلى القرآن الكريم، بعد أن سأله الصحفي الإسباني عن أي كتاب كان له الأثر البليغ

13 – محمد السعيد الزاهري" الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير"، ص15.

14 – محمد السعيد الزاهري" الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير"، ص25.

والعميق في شعره، فأجابه الكاتب: "القرآن"[15]، وأمام دهشة وتساؤل الإسباني عن تأثير القرآن في صقل ملكة الشعر ـ وهو كتاب ديني كما لاحظ له متعجبا ـ راح المؤلف يشرح له المعجزة القرآنية التي لا يقتصر تأثيرها على البيان والبلاغة، ولكنه يتعداها إلى مختلف مناحي الحياة الإنسانية، واستشهد له بآيات قرآنية عديدة دعم بها أقواله، وهو ما أثار فضول الصحفي الإسباني لمعرفة هذا الكتاب الذي لم يكن يعرف عنه إلا أنه كتاب ديني، فكان ذلك بداية طريقه نحو الهداية، ثم اعتناق الإسلام.

أو أن الشخصية مضللة بدعاوى المبشرين، مثل بطل قصة «صديقي عمار»، الذي نشأ في أحضان منظمة كاثوليكية، وتعلم في إحدى مدارسها، فمنعوه من مخالطة المسلمين، ومن التحدث باللغة العربية "...حتى نسي أنه مسلم، وأنه عربي جزائري"، إلى أن انتقل إلى الجامعة، وتعرف عليه المؤلف عن طريق صديق له يعمل أستاذا للحقوق بالجامعة، ففند الأباطيل التي حشا بها المبشرون المسيحيون رأسه، وصارا صديقين، ومازال به حتى تغير سلوكا وعقيدة، فنزع القبعة ولبس الطربوش، وسخر قلمه للدفاع عن الإسلام، وأبى إلا أن يعود إلى مدرسة الكاثوليك التي نشأ فيها ليقول لمن ضللوه طويلا: "جئت لأخبركم بأني تركت دينكم وما تعبدون من دون الله، واتبعت ملة آبائي المسلمين"[16].

أو أن الشخصية، أو الشخصيات، متأثرة بافتراءات المستشرقين" ... حتى صاروا ولهم قلوب لا يفقهون بها، إلا ما يرضي الاستعمار، ولهم آذان لا يسمعون بها إلا ما يرضي الاستعمار، ولهم أعين لا يبصرون بها إلا ما يرضي الاستعمار"[17]، مثل ذلك الطالب المغرور الذي روى قصته في مقاله القصصي ("طلبة شمال إفريقيا")، الذي ألقى محاضرة ردد فيها ما تعلمه على أيدي المستشرقين، وروج فيها لبعض ما قرأه في كتبهم من افتراءات عن القرآن، وعن شخص النبي محمد (ص)، فتطوع المؤلف (الزاهري) ليرد على محاضرته من أعلى المنصة نفسها، وفي النادي نفسه، متحدثا إلى الجمهور نفسه المتكون من طلبة شمال إفريقيا، الذين عتب عليهم في آخر المحاضرة بقوله: "... ولو كنت أعجب من شيء في هذه الحياة لعجبت من أمركم، أنتم أيها الإخوان المسلمون، أنتم مسلمون، وآباؤكم مسلمون، لا ترضون إذا وصفتم بغير الإسلام، ومع ذلكم فإنكم لا تعرفون شيئا عن الإسلام إلا ما جاءكم عن طريق أعدائه، أفمن أعداء الإسلام تتعلمون الإسلام؟"[18].

15 – نفسه، ص70.

16 – نفسه، ص31.

17 – نفسه، ص39.

18 – نفسه، ص44.

وحضور المؤلف في قصصه بهذا الشكل يذكرنا بشخصية الراوي في المقامة (عيسى بن هشام، راوية مقامات الهمذاني، والحارث بن همام، راوية الحريري)، الحاضر في كل المقامات[19]، ووظيفته لا تتغير، وهي الرواية، حتى وإن بدا الراوي في المقامة أكثر حيادا، وأحرص على نقل الوقائع دون تدخل مباشر منه. وقد أصبح هذا التقليد (حضور المؤلف كطرف في القصة) معمولا به عند كتاب المقال القصصي والصورة القصصية فيما بعد على السواء[20]، إلى عهد قيام الثورة التحريرية سنة 1954.

2. الحوار المطوَّل باللغة الفصحى

الذي قد يستغرق صفحتين وأكثر للمحاور الواحد، في التدخل الواحد، ليتحول إلى شبه خطب، لا يفرق بينها إلا استعمال اللازمة "قال" و"قلت"، وأحيانا "قال الراوي"[21] ، مما يذكرنا مرة أخرى بأسلوب المقامة أو الرواية في التراث العربي القديم. ويتجلى طول الحوار في حرص المؤلف على إعطاء الطرف المحاور الوقت الكافي لتقديم وجهة نظره، أو للسؤال، أو للتعليق على ظاهرة ما، أو فكرة، لينطلق الكاتب بدوره في الرد عليه، فيسهب في الشرح والتعليق، وفي تقديم الأدلة والحجج، وفي سرد الآيات القرآنية التي تؤيد رأيه. وأبرز مثال على طول الحوار ما دار بينه وبين الصحفي الإسباني في قصة "في إحدى منتزهات وهران"، وهي أطول قصص المجموعة[22]. وبطبيعة الحال، تكون كلمة المؤلف هي الكلمة الأخيرة في الحوار، وهي الفيصل في الكلام، بحيث ينتهي دائما باقتناع المحاور بوجهة نظر المؤلف.

والحوار في مجموعة "الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير" يتم كله باللغة العربية الفصحى، ومن ثمة فقد أتى حوارا نمطيا يعبر عن أفكار الشخصية ولكنه لا يعكس ثقافتها، ولا مستواها الاجتماعي. ولا يشير المؤلف في قصصه إلى أي نوع من صعوبة التفاهم بين شخصياته المتحاورة، ولا إلى حاجز اللغة بينها، مع أنها تنتمي إلى ثقافات مختلفة، وتعبر بألسنة مختلفة، علما أن الحوار كان يدور بينها على مستوى عال، حول قضايا عقائدية، وفكرية، وأدبية واجتماعية معقدة، ويحتاج المتحاور إلى لغة دقيقة ومعبرة عن تلك القضايا المعقدة. مثال ذلك، بأية لغة كان

19– مع العلم أن الراوي في المقامة هو شخصية خيالية إلا أنه يمثل حضور المؤلف ويعبر، إلى حد ما، عن وجهة نظره.

20 –الصورة القصصية هي ذلك الشكل الذي نتج عن تطور المقال القصصي بعد الحرب العالمية الثانية، حيث ابتعد كتابها عن الأسلوب المباشر في المرتبط بالمقال، وأصبحوا يولون عنايتهم لرسم الشخصية القصصية وللوصف. للمزيد عن مفهوم "الصورة القصصية" يراجع الفصل الثالث من كتاب الدكتور عبد الله ركيبي «القصة القصيرة في الأدب الجزائري المعاصر»، بعنوان «الصورة القصصية».

21 – في قصة "الكتاب الممزق" تكررت كلمة "قال" و"قالت" سبع عشرة مرة، و"قالت الراوية" ثلاث مرات.

22 – تحتوي على 23 صفحة، ويطغى فيها الحوار على السرد والوصف.

المؤلف يحاور ذلك الصحفي الإسباني الذي قابله «في إحدى منتزهات وهران»؟ لاسيما أن المؤلف لا يشير مثلا إلى وجود أي وسيط يترجم بينه وبين الإسباني، ولا إلى أن الصحفي كان يحسن العربية مثلا، وقد قرأ عليه أشعارا بالعربية، كما قرأ عليه الصحفي أشعارا بالإسبانية[23].

ولا يأتي أيضا على ذكر لغة الحوار الذي دار بين ربات البيوت الجزائريات وبين المرأة الفرنسية مؤلفة "الكتاب الممزق"؟ ولا إلى الكيفية التي فهمت بها زوجة صديقه المحامي الذي كان يزوره في بيته، الحوار الذي كان يدور بينهما حول حكمة الصلاة والصيام، وتحريم الخمر، وعن القرآن الكريم، وما إلى ذلك من قضايا الدين، وهي الفرنسية الأصل واللسان، بدليل أنها كتبت له باللغة الفرنسية، على حاشية رسالة زوجها إليه، لتشكره على فضله في فهمها للإسلام، واعتناقها له بعد اقتناعها به عن طريقه[24] ؟

ومن هذا كله نستنتج أن لغة الحوار في هذه المجموعة إنما هي لغة المؤلف وتعبيره، وليس لغة الشخصيات أو تعبيرها، أو لنقل إنه لسان حال الشخصيات، ولذلك لم يعكس الحوار مستواها الثقافي والاجتماعي ـ كما سبقت الإشارة ـ فضلا عن طباعها، وأمزجتها، وصفاتها النفسية والعاطفية.

3. الشخصيات النمطية

أدت النمطية في لغة الحوار، وهيمنة شخصية الراوي أو المؤلف عليها، وما نتج عنها من غياب الفروق بينها، سواء اللغوية، أو الثقافية، أو الاجتماعية، أو النفسية أو المزاجية، إلى وجود شخصيات نمطية متشابهة، لا يفرق بينها إلا الجنس (امرأة أو رجل)، أو الدين (مسلمة أو مسيحية)، أو الوطن (جزائرية أو فرنسية، أو إسبانية)، أو المعتقد (مؤمنة أو ضالة)، لكننا لا نستطيع أن نميز بينها أو نصنفها على مستويات أخرى، خُلقية أو خَلقية.

وقد أسهم في تكريس هذه النمطية، فضلا عن الحوار الطويل المنمَّط، أن الكاتب لا يحتفي بالوصف، ويعوضه في مستهل القصة بالأسلوب التقريري، الإخباري، الذي يفضي إلى المناسبة التي تؤرخ لأحداث القصة، فيذكر التاريخ والمكان، ثم يعرِّف بالشخصيات تعريفا عاما، يذكر فيه غالبا، الاسم، والمهنة، أو الوظيفة بالنسبة للرجال (محام، طبيب، صحفي، أستاذ، طالب جامعي)، والصفة بالنسبة للمرأة (زوجة، ربة بيت، فرنسية مسيحية، عربية مسلمة)، ونادرا ما يذكر اسمها،

23 – محمد السعيد الزاهري "الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير»، قصة "في أحد منتزهات وهران" ص68،69.

24 – نفسه، "قصة "عائشة"، ص15.

قبل أن ينتقل إلى موضوع القصة التي يحتل فيها الحوار الحيز الأكبر، ليخلص في الأخير إلى التعليق على الموضوع، أو إلى استخلاص العبرة مما جرى ـ كما سبقت الإشارة ـ وهي طريقة في تقديم الحدث تقرب الكاتب مرة أخرى من طريقة المقامة في تقديم الحدث وفي التعليق عليه.

يقول مثلا في مستهل قصة عائشة: "كنت بعاصمة الجزائر سنة 1344 هجري، وصمت بها رمضان ذلك العام، وكنا رفقة نجتمع كل ليلة من ليالي رمضان، وكان في رفقتنا محام مسلم جزائري، اسمه الإسلامي عبد القادر، واسمه الفرنسي "ألبرت"... وكان متزوجا بزوج فرنسية، لا تعرف هي أيضا العربية الدارجة إلا قليلا، وكانت تحضر معه مجالسنا تلك..."[25] إلى آخره. ويختمها بقوله : "أنا لم أقصد أول مرة إلى هداية هذه السيدة المسيحية إلى الإسلام، ولكن الله هداها إليه بما كنت أتحدث به إلى زوجها المسلم، وبما كان يجري بيني وبينه في الإسلام من مناقشة وحوار، فأسلمت، وجعلت تدعو إلى الإسلام وتبشر به، لا تلهيها عن ذكر الله زينة باريس وزخرفها، ولا ما هنالك من لعب ولهو، ولا ما في تلك الحياة من غرور وأخاديع."[26].

والحال أن غياب الوصف في هذه القصص، وإعطاء المكانة الأولى فيها للحوار، والاكتفاء بتقديم لمحات تقريرية في البداية، وخاتمة وعظية في النهاية، قد أعطى شخصيات مسطحة، باهتة الملامح، متشابهة الصفات، تفتقر إلى الأبعاد الخاصة لكل منها، الذهنية، والنفسية، والجسمية، في حين أن هذه الأبعاد الإنسانية هي التي تشكل أساس الفن القصصي، وهي التي توهم القارئ بصدقه وبواقعيته.

4. استعمال التعبير القرآني

ويأتي التعبير القرآني في قصص الزاهري ليشكل خاصية أسلوبية بارزة، وجزء لا يمكن فصله عن النسيج الكلي للقصص، وهو حاضر فيها بطريقتين، إما بطريقة مباشرة، أي عندما يستشهد، في سياق كلامه مع محدثه، بآيات قرآنية يضعها بين مزدوجين، وإما بتضمين ألفاظ، أو عبارات من القرآن في كلامه، وهي الظاهرة الأقوى حضورا في هذه القصص، ويأتي هذا التضمين بشكل تلقائي ولا يميزه عن كلامه بمزدوجين، كما يفعل في الحالة الأولى، ولو أحصينا هذا النوع من التضمين في قصصه لتجاوز ـ على الأرجح ـ عشرة بالمائة أو أكثر، وكمثال على ذلك نورد منه ما يلي، على سبيل المثال لا غير. جاء في قصة "الكتاب الممزق": (فلما سمعنه أكبرنه (أي ما جاء في الكتاب) وقلن حاش لله

25 – محمد السعيد الزاهري "الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير»، ص12،13.

26 – نفسه، ص 18.

ما هذا حقا، إن هذا إلا خطأ مبين"[27] ، ويختم القصة معلقا بالقول "... إذن يكون الدين كله لله، وإذن لآمن من في الأرض كلهم جميعا"[28]. ومثل ما جاء في قصة "صديقي عمار" قوله: "وكانوا لا يدخلون هذا البحر المتوسط حتى يعطوا الجزية وهم صاغرون"[29] ، وقوله في "طلبة شمال إفريقيا الشمالية": "فرجوت أنا لهذه الجمعية المباركة أن تكون مسلمة خالصة لا شية فيها، تربي شباب الجزائر وتعلمهم الكتاب والحكمة وتزكيهم وتنشر فيهم خلق القرآن"[30]. وهذه الخاصية الأسلوبية تشمل في الواقع جيل الزاهري بأكمله، وتتجلى في مختلف مجالات الإبداع الأدبي لديهم، ولاسيما في مجال الشعر، فهي أظهر وأقوى منها في القصة أو المقالة الأدبية، وهذا يرجع بالأساس إلى حفظهم للقرآن الكريم منذ نعومة أظافرهم، حيث كان حفظ القرآن هو أول ما يبدأ به الصبيان تعليمهم، ولا ينتقلون إلى مرحلة التعليم التكميلي إلا بعد حفظهم القرآن كاملا، ولا ينتقلون إلى الدراسة في معهد ابن باديس بقسنطينة، أو الزيتونة أو القرويين بعد ذلك، إلا إذا كانوا حافظين للقرآن.

ونخلص من كل ما سبق إلى النتائج التالية:

أولا : أن محمد السعيد الزاهري كان رائد القصة الأول قي الجزائر عن جدارة واستحقاق، لأنه كان أول من كتب ونشر القصة في الجزائر، وقد صارت قصصه نماذج للكتاب المعاصرين له، وللذين جاؤوا بعده، يحذون حذوه فيها، وينسجون على منوالها.

ثانيا : جاءت قصصه مطبوعة بالطابع الدعوي الإسلامي، حيث كانت تتصدى لحملات التبشير في الجزائر، وتكافح مخططات الاستعمار في الجزائر خاصة، وفي البلاد المغاربية عامة، وبهذا كان أول كاتب في الجزائر يؤسس للقصة الإسلامية خاصة، وللأدب الإسلامي عامة.

ثالثا: لم يكن متأثرا فيما كتب بالقصة الأوروبية، ولم يتخذ منها نموذجا يحتذي به، ولكنه نسج قصصه على منوال التقاليد المعروفة في السرد القصصي العربي بمختلف أشكاله، واتخذ من التعبير القرآني مثله الأعلى فشكل ذلك خاصية بارزة في قصصه.

27 - نفسه، ص 19.

28 - نفسه، ص 25.

29 - نفسه، ص 30.

30 - نفسه، ص 33.

رابعا: برزت في قصصه جوانب نقص من الناحية الفنية، تجلت بالخصوص في ضعف رسم الشخصيات، وفي هيمنة الحوار على الوصف، ويرجع ذلك بالأساس إلى اتخاذه القصة وسيلة لا غاية في حد ذاتها، من جهة، ولأن القصة على عهده كانت في بداياتها في مختلف البلاد العربية، ولم يكن بين يديه منها نماذج ناضجة يمكنه الاستفادة منها على المستوى الفني.

المراجع

1. محمد السعيد الزاهري، (د.ت): الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير. ط2، دار الكتب، البليدة الجزائر.
2. صالح خرفي (1986): محمد السعيد الزاهري. سلسلة الأدب الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
3. عبد الله ركيبي (1969): القصة القصيرة في الأدب الجزائري المعاصر. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة.
4. محمد الصالح الجابري (1983): النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس1900ـ1962». الدار العربية للكتاب، ليبيا ـ تونس، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
5. محمد الهادي السنوسي (2007): الزاهري «شعراء الجزائر في العصر الحاضر»(جزآن). منشورات السائحي، ط2 الجزائر.
6. مصطفى فاسي (1985): البطل في القصة التونسية، نشر المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.